البرلمان الفرنسي ومفهوم الاستعمار بين الأمس واليوم

ملخص

إن الاستعمار الأوروبي الحديث رفع شعار تحضير الشعوب المتخلفة، وتعمير الأرض ونشر العدل وبسط القيم الفاضلة، وهذا بالضبط ما تعنيه كلمة " استعمار" في اللغة العربية.

لكن المستعمر الفرنسي في الجزائر ،مارس نقيض ذلك، حيث شرع بعد سلبه للسيادة الوطنية في الحط من قيمة الجزائري كإنسان بتقتيله وتهجيره وتجهيله وإذلاله واحتقاره من اجل تهديم هويته لاستعباده وإدماجه، كل ذلك تم بمباركة من برلمان الثورة الفرنسية آنئذ، فأين هي إيجابيات الاستعمار التي وافق عليها برلمان الجمهورية الخامسة.

د. عبد الله بوقرن
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية
جامعة منتوري قسنطينة
الجزائر

Résumé

L'Europe colonisatrice continue de se prévaloir d'une mission civilisatrice : cas des dernières frasques du parlement français de la 5ème république. Or, ce pays qui se targue d'être la patrie des droits de l'homme, l'histoire a inscrit à son palmarès les pires atrocités. L'encre de la déclaration universelle de 1789 n'avait pas encore séché que ses auteurs se transformaient en prédateurs, débarquant, sur les territoires en face, pour y commettre la plus abjecte barbarie : déportations, confiscations, humiliations, appauvrissement... C'est à l'étude de cet étrange paradoxe que le présent article convie.

مقدمة

الاستعمار(1) تاريخيا هو ظاهرة معادية للتحضر والإنسانية، إنه محصّلة لنمو قوى رأس المال والآلة العسكرية في بعض الدول الأوروبية تباعا منذ حركة الاكتشافات الجغرافية، فبانحسار نفوذ الكنيسة وتراجع سيطرة رجال الدين على الحكم انفكّت عقدة الذاتية الأوروبية أو المركزية الغربية فأصبح الاتصال بالماضي اليوناني والروماني مباشرا وبدون الحاجة إلى وساطة رجل الدين، وأضحى العالم مجالا واسعا لتنفيذ السياسة الاستعمارية الأوربية المستلهمة من روما الوثنية وفتوحات الإسكندر المقدوني، إنّها أوروبا الاكتشافات الجغرافية والثورة الصناعية، أوربا الأنوار والثورة الفرنسية... وتلك هي مراحل نموّ

© جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر2010.

النزعة الاستعمارية الأوربية الحديثة، التي لم تكن تخطّط في المجهول بقدر ما كانت حلقات تاريخية أعيد فيها بناء قوّة استعمارية أوربية بواجهة ترفع شعار الحضارة وجوهر عنصري معادي للإنسانية، تقوم استراتيجيته على نهب منظّم لخيرات الشعوب بالأمس، أمّا اليوم فيقوم بتحريك القوى الرجعية التقليدية ذات الجذور العميقة في الداخل لإماتة كلّ محاولة نهضوية بدءًا بدفن رجل أوربا المريض واقتسام تركته ثمّ استزراع بذور صراعات لا نهاية لها فيه حتّى ما إذا حاول النهوض تعثّر وسقط في حلقة مفرغة لا نهاية لها أشبه بسيزيف وصخرته، وقد أتت على الاستعمار الأوربي فترة غادر فيها الأرض ولكن لم يفعل ذلك حتّى اطمأن إلى عوامل الدمار التي ستنخر العالم العربي الإسلامي من ورائه (2).

الاستعمار: الشعار والواقع

يتبيّن لنا أنّ مصطلح "استعمار" يحتاج إلى مراجعة، فالمدلول الاصطلاحي لكلمة استعمار حديثا يخالف تماما مدلول الكلمة ذاتها في النصّ القرآني، ولعلّ هذا التناقض هو الذي دفع بالمرحوم مولود قاسم إلى "الثورة" على الكلمة وإبدالها بالكلمة التي يرى أنّها أدلّ وأدقّ في التعبير عن مضمون الاستعمار وهو الدمار والخراب وتحطيم الشعوب المقهورة، ولذلك أطلق عبارته الشهيرة **الاستدمار**، وهو التدمير الذي ندّد به شرفاء فرنسا أنفسهم (3) .

في ما يتعلّق بالجزائر كانت أول خطوة في السياسة الاستعمارية الفرنسية هي تحطيم مقوّمات الأمّة، لكي لا تنهض مرّة أخرى، وكان معول التحطيم قد طال الرموز الدينية والثقافية للهوية الوطنية فضلا عن النهب المنظّم والاستيلاء على مصادر الثروة، ولم تستثن تلك السياسة الإنسان، الذي تعرّض لأبشع أنواع الإذلال، ثمّ جاءت الخطوة الأخطر وهي تنفيذ سياسة التمكين للثالوث المنافي للكرامة والإنسانية وهو الجهل والفقر والمرض.

لا ريب أنّ الثروة التي تزخر بها أقاليم ما وراء البحار هي التي أسالت لعاب القوى الاستعمارية الأوربية، فخرجت بجحافلها لتعلن الحرب على الإنسانية خارج أوروبا، وكانت المؤسّسات العلمية هي التي تختار أنجع الطرق وتقدّم أذكى الاستراتيجيات لتنفيذ الخطط الاستعمارية فهاهي أكاديمية العلوم في باريس في القرن الثامن عشر تقرّر ما يلي : "... إن أوروبا رغم صغر حجمها الجغرافي فهي التي تتغيَّر وتتقدم باستمرار(4)". أوروبا التي توجت سياستها بإعلان حقوق الإنسان والمواطن واستبدلت بذلك شعار يحيا الملك بعبارة يحيا الوطن لينهار ثالوث التسلط والسيطرة (الملكية والكنيسة والإقطاع) ويبرز ويتأسس شعار الديمقراطية **الحرية والمساواة والأخوة**، هذا الشعار الذي كافحت شعوب أوروبا من أجل تجسيده بعدما نادت به الثورة الفرنسية 1789، وهو الشعار الذي لا تزال تتغنى به تيارات فكرية وسياسية عديدة في أوروبا ولكن عندما يتعلّق الأمر بحقوق الشعوب الأخرى سرعان ما تغيّر تلك التيارات موقفها

أو تتعمّد الحياد السلبي في أحسن الأحوال، وخير مثال على ذلك مأساة الشعب الفلسطيني.

لقد غزت فرنسا الجزائر تحت شعار الرسالة الحضارية وواجب تمدين الشعوب، غير أنها طبقت في الجزائر خطة تتناقض تماما مع مبادئ الحضارة وحتى مع تلك المبادئ التي نادت بها ثورتها حيث اقتضت الخطة الاستعمارية الفرنسية ومن خلال برلمانها بتدخل الجنرال بيجو صاحب مقولة **السيف والمحراث** لدى البرلمان لإقناعه في جلب المعمرين الأوروبيين إلى الجزائر حيث بدل كل جهوده من أجل الحصول على موافقة الحكومة الفرنسية للسماح له بمساعدة أي أوروبي يرغب في الانتقال إلى الجزائر،حيث يجد الأراضي الخصبة والمياه المتدفقة والأيدي العاملة الرخيصة في متناول يده و قد وقف بيجو في جانفي من عام 1840م أمام نواب المجمعية الوطنية الفرنسية سائلا إياهم ."إننا في حاجة ماسة إلى جحافل دهماء من المعمرين الفرنسيين والأوروبيين ولكي تجلبوهم فمن اللازم عليكم أن تعطوهم أراضي خصبة... أينما وجدتم مياها متدفقة ... أنزلوا بها المعمرين ولا يهمكم أمر أربابها... لأن عظمة فرنسا الاستعمارية تلخص كلمة الاستعمار في أمرين هما :الاستعمار والمعمرين... أما الأهالي فإن الجيش الفرنسي سيعدمهم والباقي يُطرَد إلى الفيافي" (5).

يزخر التاريخ بشواهد كثيرة عمّا اقترفه الاستعمار الفرنسي من جرائم على أرض الجزائر - على امتداد أكثر من قرن - تُعَدّ بحق جرائم ضد الإنسانية، ولا تختلف عن جرائم النازية التي كانت فرنسا نفسها إحدى ضحاياها، وبذلك يناقض البرلمان الفرنسي نفسه عندما يوافق على طروحات اليمين المتطرّف ويوقّع على قانون يمجّد الاستعمار وهو البرلمان سليل الجمعية الفرنسية التي ولدت من رحِم الثورة الفرنسية ذات الشعار الخالد : **الحرية والمساواة والأخوة** (6) .

من الجدير بالتنويه في هذا السياق تذكير من يرفعون اليوم شعار الدفاع عن حقوق الإنسان، الممجّدين لإيجابيات الاستعمار أن نقول لهم، بأنّ الشعوب التي وقع عليها القهر الاستعماري هي التي قدّمت المثال في التسامح واحترام كرامة الإنسان فهذا الأمير عبد القادر يحثّ على واجب الاحتفاظ بأرواح الأسرى، ويعاقب كل من يمارس فعل القتل أو التنكيل ،كما اعتمد خطة مبادلة الأسرى، أما في أوقات العوز وعدم توفر الأقوات لإطعام الأسرى الفرنسيين فقد كان يطلق سراحهم دون مقابل ويشهد عن هذه المعاملة الإنسانية أسرى فرنسا (7)، وفي مقابل ذلك كان قادة الاحتلال الفرنسي مثالا في الوحشية حيث كان الأسرى من الجزائريين يلاقون على أيديهم ما تحدّث عنه أحد القادة العسكريين إلى زميلة حيث قال : "...تسألني عن أمر الأهالي، فإن الذكور فوق الخمسة عشر سنة كان مصيرهم القتل بشتى الطرق إمّا بقطع الرأس أو ببقر البطن ...الخ"، أما النساء والأطفال فإننا كنا نحتفظ بالبعض والباقي كان يباع في الأسواق كما تباع الحيوانات ويشحنون إلى الجزر البعيدة لكي يتحقق حلم المستعمرين من وجود أرض خالية لتعميرها (8).

إن الاستعمار رافع شعار تمدين الشعوب المتخلفة وتحضيرها، قد عبّر بجرائمه الوحشية عن المفهوم الحقيقي لمصطلح الاستعمار على حد تعبير البشير الإبراهيمي "... فبدلا من التعمير ونشر العدل والأمن وبسط القيم الفاضلة والعلم والتقدم والازدهار." وهو المعنى الذي تحمله كلمة "استعمار" في العربية، أما ممارسات الاستعمار الأوروبي الحديث، وخاصة الفرنسي فقد قلبت معنى الكلمة إلى نقيضها فأصبحت مرادفة " للإثم والبغي والخراب والظلم والتعدي والفساد والنهب ... والحيوانية (9) .

بيجو الوجه الحقيقي للاستعمار :

للاستدلال على انطباق كلمة استدمار على الغزو الفرنسي للجزائر، علينا أن نتمعن جيدا في المذكرة التي وجهها بيجو (Bugeaud) إلى أعضاء المجالس الثنائية في بلاده، وهذا نصها : " أنتم أمام شعب معتز بنفسه ،شعب محارب ومدرب على فنون القتال،ومستعد لخوض المعارك على الدوام، غيور على استقلاله،كما يشهد التاريخ على ذلك ،فإن أردتم أن تخضعوه وتغيروه وتحرموه من حقوقه لفائدة شعب جديد دخيل عليه، فيجب أن تكونوا أقوياء،إما بتعبئة جيش مجند على الدوام أو بتقوية عزائم شعبنا ليكون أقدر على البطش والسيطرة " (10) .

كان بيجو يهدف من وراء اعتماد هذه اللهجة إلى إسكات بعض الأصوات المعارضة لتلك الجرائم الفرنسية ضد الإنسان في الجزائر، مذكرا إياهم في الوقت نفسه بمصير الاستعمار القديم في الجزائر خاصة الروماني والبيزنطي اللذين لقيا مقاومة عنيفة من طرف الأهالي، كما تعكس المذكرة مفاجأة الفرنسيين بالمقاومات العنيفة والمنظمة أحيانا، وبالثورات الضيقة والمحلية أحيانا أخرى، تلك المقاومة التي تعكس الأنفة والعزّة التي لا يساوم فيهما الأهالي مطلقا، ومن الذين حاولوا فضح تناقضات الاستعمار الغربي الذي بلغ منظّروه حد تصوير أقاليم ما وراء البحار بأنّها أرض شاغرة، وحتّى لو وُجد فيها بعض السكّان فإن منطق الاستعمار كما يقول هشام جعيط: ... يفترض مسبقا وجود شخصية الطرف الآخر لكي يقضي عليها في الوقت نفسه حيث يؤكدها تأكيدا سلبيا بإذلالها وإنكارها كقيمة..." (11) .

تلمّح مذكرة بيجو إلى ضرورة جلب معمرين أكفاء متفانين في العمل أي أنداد للجزائريين، غير أن ما حدث كان العكس، حيث تم استقدام - على رأي مالك بن نبي- "حثالة من الأوباش المغامرين بهدف النهب والثراء دون كدّ"، وهو الذي ترفضه الديانات السماوية ومبادئ الأخلاق العامة والقوانين الوضعية، ناهيك عن مبادئ حقوق الإنسان التي انبثقت عن الثورة الفرنسية، ويضيف مالك بن نبي :" أنه كان على بيجو أن يرفع من قيمة المستوطنين القادمين إلى الجزائر لكنّه قلب الموازين رأسا على عقب (12)، لأن العملية في أهدافها استدمارية حيث بدأ بتطبيق خطة تدميرية تهدف إلى الحط من شأن الجزائري ليس إلى درجة حثالة المستوطنين بل إلى أحط من ذلك فقد طبق جدلية هيغل (السيد والعبد) فحرْب التفقير والتدمير والتجهيل التي مارسها الجندي

الفرنسي والتي تبعتها حرب النهب من المستوطنين الذين جيء بهم أفواجا إلى الجزائر مدفوعين بالأساطير المروَّجة عن كنوز البلاد البربرية (13) (Pays barbaresque ou Barbarie) ومكنوناتها ـ وقد بلغت وحشية هؤلاء حدّ التسابق في هدم دور العبادة لاستخراج ما تحتها من كنوز مزعومة.

لقد دعا بيجو إلى تحريك الآليات الحربية ضد الجزائريين فقال: "يجب منع الأهالي من بذر أراضيهم وجني محاصيلها والرعي فيها..." (14)، فالخطة الاستعمارية تهدف إلى مصادرة مصادر الرزق وتعطيل الإنتاج الذي يوفّر للأهالي الحدّ الأدنى من العيش، وليس أدل على ذلك من شهادة أحد الأوروبيين المعاصرين للغزو وهو الرحالة الألماني هاينريش فون مالت سان الذي قام برحلة إلى الجزائر، ونقل صورة واقعية عن نوعية المعمرين القادمين من باريس هؤلاء الدين أقيمت لهم قرية خاصة هي (العفرون) – 70 كلم غرب الجزائر العاصمة - في أراضي المتيجة الخصبة، يقول هذا الرحالة :" إن الفلاح الفرنسي لا يهاجر بسهولة تاركا أرضه لذلك فإن فئة المعمّرين في قرية العفرون الفلاحية تتشكل من خليط غريب جمعته الحكومة الفرنسية من صغار التجار المفلسين وأصحاب المقاهي وصانعي الشعر المستعار والحلاقين وصغار الجواسيس المتقاعدين وهواة التمثيل والغناء دون مواهب والمومسات اللائي تقدّم بهنّ السنّ، والعمال في محلاّت القمار والنصابين واللصوص وغيرهم من أصحاب المهن الحقيرة المخالفة لتقاليد المجتمع في مدينة عالمية كبيرة وفاسدة (يقصد باريس) ، وكلّهم من الكسالى أعداء العمل النشيط، جيء بهم لاستعمار الأرض وتمدين وتحضير البلاد...؟ فكان على الأرض الأفريقية (الجزائر) أن تصبح شاهدة على الدعارة ... والخبث والخداع الذي عرف به هؤلاء المهجَّرون إليها من المدينة الكبيرة (باريس) التي تخلصت من تلك الحثالاث المتهورة التي لا تفكر في العمل ولو لحظة واحدة وكان جدول عملها : ما أحلى البطالة وفي قرية المعمّرين هذه (العفرون) كانت المقاهي صورة مصغرة من مقاهي باريس حيث يتوفر البليار، أما ساحة القرية فهي فسيحة تساعدهم في إقامة مسرح الهواة في الفضاء الطلق لقتل الوقت ... فقد كان هؤلاء المعمرون غير منشغلين بأي مشروع فلاحي ولا باستصلاح وزراعة الأراضي الخصبة، فقد وفرت لهم الحكومة السكن والطعام مدة سنتين مع منحهم قطعة أرض بالمجان بالإضافة إلى مستلزمات زراعتها، ومع ذلك لم يقوموا بخدمة الأرض (وقد كانوا يحصلون على الوجبة التي تعطى للجندي يوميا على أساس أن يتفرغوا لخدمة الأرض وبهذه الكيفية أصبحت قرية العفرون الفلاحية نسخة من تلك الأحياء الباريسية التي قدموا منها، فأخذت عدوى الظواهر السيئة تسري بسرعة حيث أخذ البدو العرب - مع مرور الوقت - يزورون القرية أكثر فتعلموا تعاطي المسكرات ولعب القمار وغير ذلك من "فضائل" الحضارة الأوربية !! (15) وهذا هو الاستدمار الذي باركه البرلمان الفرنسي في فيفري سنة 2005 م واعتبره عملا جبارا قامت به الحضارة الغربية عامة وجيوش المعمرين والفرنسيين في شمال إفريقيا والجزائر على وجه الخصوص . (16)

جول فيري والتنظير للاستعمار :

لقد دشن جول فيري (17) (Jules ferry) التاريخ الفعلي لبروز النظرية الفرنسية للاستعمار التي شكلت الدعوة إلى "التمدين" أحد مكوناتها الرئيسية كما أن تحمله مسؤولية الدفاع عن مشروعية توجّه بلاده في حقل التوسع لم تنحصر في تصريف مضامين هذه النظرية بل امتد إلى تطويرها وصقلها انطلاقا من موقعه كممارس للسلطة في بلاده ومواكب لما يجري في المستعمرات الفرنسية وبخاصة في الجزائر،لذلك سيؤسس دعوته لضرورة التوسع على منطلقين أساسيين:

1. اقتناعه بأن الاستعمار قانون حتمي، نابع من درجة التطور الذي وصلته البلدان الأوروبية وفي هذا الصدد (18) أكد قائلا: "السياسة الاستعمارية بنت السياسة الاقتصادية وقد استهل خطابة أمام الجمعية الوطنية الفرنسية بهذه الجملة:"إن الشكل الأول من الاستعمار هو الذي يقدم المأوى والعمل لزيادة السكان في البلدان المتخلفة" وفي هذه العبارة يتّضح جوهر الاستعمار الذي هو إبادة أهل البلاد وزرع شعب جديد والتعهّد بتنميته ديمغرافيا واقتصاديا ... ويسترسل جول فيري في حديثه أمام البرلمان الفرنسي مقتبسا من الفيلسوف الإنجليزي جون ستيورات ميل بعض الأفكار، لإيضاح عبارته قائلا: "الاستعمار بالنسبة للبلدان القديمة الغنية هو إحدى أفضل العمليات التجارية التي تستطيع هذه الدول ممارستها... (19)، ويضيف جول فيري مخاطبا: " أيها السادة أعضاء البرلمان ثمة جانب آخر أكثر أهمية من هذه المسائل قاطبة، إليكم أيها السادة النظرية التي لا أتردد في قولها : إن المسألة ليست اقتصادية ولا سياسية ولا مسألة تاريخ بل هي ميتا فيزياء سياسية ،أيها السادة علينا أن نقول بصوت مدو، وبمزيد من الحق" يجب أن نعلن بصراحة أن للشعوب العليا حقا تجاه الشعوب الدنيا... أكرر أن هناك حقا للأعراق الأفضل لأن عليها واجب تمدين وتحضير الأعراق الأدنى... ليضيف قائلا: هناك مناسبات كثيرة تتراءى أمامي فكرة أنه على فرنسا العظيمة، بل من الشرف أن لا تترك شعبا بربريا يمعن في الجمود زمنا طويلا (20). وفي قاعة البرلمان المضطربة - خاصة الجهة اليسرى على حد تعبير روجي غارودي - يتلقّى جول فيري عدة أسئلة محرجة خاصة من طرف السيد (جول مين) من اليسار الذي واجهه قائلا: " أتجرؤ على هذا القول في البلد الذي أعلن حقوق الإنسان. كما تلقّى ذات الأسئلة المحرجة من السيد ديكونيه: " إنّ ما تقوله يا سيّد فيري هو تبرير للرق والنخاسة. عندئذ يجيب جول فيري: "إذا كان السيد "مين" المحترم على حق وإذا كانت وثيقة حقوق الإنسان قد كتبت لزنوج إفريقيا الاستوائية إذن بأي حق يمكنكم أن تفرضوا عليهم المبادلة والتجارة (21) .

2. اقتناعه أن المستعمرات تشكل بالنسبة للبلدان الغنية مجالا واسعا لاستثمار الأموال وإنتاج السلع وتحويل دواليب الاقتصاد بإيجاد أسواق لتصريف المنتجات وجلب المادة الخام مجانا ولا ننسى أهم قضية في العملية الاقتصادية وهي توفير الأيدي العاملة الرخيصة التي تتوفر عليها المستعمرات للدول المستعمرة ،وبعد أن ينتهي (جول فيري)

من استعراضه لفكرة الفيلسوف يضيف قائلا: وأن أؤكد أنّ فرنسا التي غصّت دائما بالرساميل وصدرت إلى الخارج كميات كبيرة منها ذلك أننا نستطيع أن نحسب بأرقام المليارات الرساميل التي يصدرها هذا البلد العظيم (فرنسا)، أقول أن فرنسا وهي جد غنية يمكن أن تفيد في هذا الجانب من المسألة الاستعمارية " (22) .

يمكن أن نستخلص من طروحات جول فيري عددا من الاستنتاجات نوضّحها في ما يلي :

• أنّ هذا الكلام قاله بعد غزو فرنسا للجزائر ونهب خيراتها وثرواتها وأولها خزينة الجزائر التي كانت تقدر آنذاك بخمسين مليونا من الفرنكات الذهبية والفضية سواء كانت مسكوكة أو معدّة لذلك.

• أنّ من أسباب الغزو الفرنسي للجزائر حادثة المروحة التي تشهد على عجز فرنسا عن الإيفاء بديونها للجزائر، سواء القروض المخصصة لشراء القمح الجزائري أو القروض المأخوذة عينا من خزينة الجزائر حيث أن فرنسا قد عانت من اضطرابات اجتماعية قبل ثورتها وأن هذه الاضطرابات قد استمرت حتى بعد غزوها للجزائر، إضافة للجفاف الذي أثر سلبا على عدة مقاطعات كما سوف نوضح ذلك لاحقا. فأين الغنى وأين الرساميل التي ادعت فرنسا أنها تتوفر عليها حسب تصريحات جول فيري" .

• أنّ المتأمل في أقوال فيري يتأكد من حقيقة أساسية وهي : "النزعة الاستعلائية" لمنظري الاستعمار الفرنسي وقادته الذين فنّد تاريخهم في الجزائر ما يتباهون به من الرقي الحضاري، لأنّ اختلاف المعايير الحضارية لا يسوّغ أبدا إطلاق الأحكام جزافا.

• أنّ المتمعن في مفهوم التمدين في خطاب الاستعمار الفرنسي وخاصّة لدى جول فيري، يستخلص أكثر من معنى، فهو يدعو إلى نشوء الاستعمار وتكوين الإيديولوجيا الموجّهة لحركته دعوة نابعة من قناعة مشتركة بضرورة استحضار رسالة روما القديمة واستكمال مشروعها الحضاري،تارة بالإكراه وتارة أخرى بالعمل على استمالة جهة معينة من السكان (سواء بفرنستها أو تنصيرها أو بخلخلة هويتها على الأقل والهدف من وراء دلك زرع التفرقة بين السكّان وتقسيمهم إلى أصيل ودخيل،باستمالة الطرف الأول واعتباره من أصول أوربية،وأنّ له الاستعداد لتقبّل الحضارة في مقابل الطرف الثاني ذي الأصول الشرقية المتميّز بالكسل ورفض الحضارة، وهم أولئك الذين يجاهرون برفض إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية، وبرّروا عدم تكوين أمّة بهذا اللاتجانس في الماضي مثلما هو في الحاضر، فتداول على حكمه أسياد منذ الفينيقيين إلى الرومان والوندال والبيزنطيين والعرب والأتراك والإسبان وما عودة فرنسا وهي التي تعتبر نفسها الوريث الشرعي للحضارة الرومانية في شمال إفريقيا أخيرا إلاّ تتمّة للدورة التاريخية ولإحياء أمجاد روما في هذه البلاد (23)، وهو ما أكده عناصر المدرسة الاستعمارية من أساتذة جامعة الجزائر وعلى رأسهم (إميل فيليكس غوتيي)

وسطيفان اقزال وغيرهما من الأكاديميين، وعندما تنتقل أفكار هؤلاء إلى العسكريين وعلى رأسهم بيجو وسانت آرنو وكافيياك وبيليسي، وكانروبير ... من مجرمي الحرب وقاطعي الرؤوس ناهيك عن القتال بالدخان (24)، فإنّهم سيحوّلونها إلى سياسة الزجر والعنف والتنكيل المعروفة.

خاتمة

ما يمكن استنتاجه من رؤى منظري الاستعمار الفرنسي خلال القرن التاسع عشر هو تأثرهم بنظرية التفوق العرقي التي كانت سائدة عند اليونان ،في القرن الرابع قبل الميلاد ،حيث كان قدماء اليونان يعتقدون أنهم جُبلوا من عناصر نوعية تختلف في طبيعتها عن العناصر التي خلقت منها باقي الشعوب والتي كانوا يطلقون عليها اسم : باربـاروي (Barbaroi)، تحقيرا وتقليلا من شأنها، وأنهم هم وحدهم كاملو الإنسانية وأنهم قد زُوِّدوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة، على خلاف الشعوب الأخرى المجردة من هذه القوى، لذلك فهي لا تختلف كثيرا عن الأنعام وقد عبر عن وجهة نظرهم هذه أصدق تعبير وصاغها نظريا (بيولوجيا واجتماعيا) كبير فلاسفتهم: أرسطو، حين قرر أن الآلهة قد خلقت فصيلتين من الناس:

1- فصيلة زودنها بالعقل والإرادة وهي فصيلة اليونان، وقد فطرتها على هذا التقويم الكامل لتكون خليفتها في الأرض السيدة على سائر الخلق.

2- وفصيلة لم تزودها إلا بقوة الجسم ،وما يتصل اتصالا مباشرا به وهؤلاء هم: البرابرة، الذين فطرتهم الآلهة على هذا الشكل ليكونوا عبيدا مسخَّرين للفصيلة اليونانية المختارة (25) .

بهذه الأحكام يتمّ تسويغ استغلال اليونان لغيرهم، وهو ما تأسّى به خلفاؤهم الرومان الذين اتخذوا من القوّة العسكرية وسيلة لإذلال واستغلال غيرهم من الشعوب. ومن هنا نلاحظ كيف أن أرسطو قد بالغ في تحقير غير اليونان إلى درجة انتزاع الكرامة الإنسانية منهم معتبرا إياهم عبيدا بالفطرة انطلاقا من استدلال فاسد وهو أن الناقص المدارك عبد بالطبع " وهي المقولة التي اعتمدها جول فيري وأسس عليها نظرته، وهاهو البرلمان الفرنسي اليوم بعد مرور قرن على نظريات جول فيري يخترع مصطلحا جديدا هو الاستعمار الإيجابي !!.

الهوامش

1- مصطلح استعمار (Colonisation, Colonialisme) في صيغته اللاتينية ظهر في بيئة أوربية ، وعندما قامت النهضة العربية وتمّ تعريب المصطلحات كما هو معروف اعتُمدت كلمة استعمار في مقابل الاصطلاح اللاتيني (Colonisation, Colonialisme)، ولذلك لا يتضح المدلول إلاّ بالعودة إلى المصطلح في اللغة التي ظهر فيها، ومن هنا نستنتج بأنّ مصطلح الاستعمار يحمل معنى التعمير" ولكن بالنسبة للقوى الاستعمارية وجالياتها لا غير" . وتفيد الكلمة في التعبير القرآني التحويل الإيجابي لمنطقة ما بحيث ينقلب حالها من التخلف إلى التقدم بإقامة الهياكل القاعدية مثل بناء المساكن واستصلاح الأراضي واستغلالها بأساليب

علمية، وهو ما يُستخلص من الآية : "...هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها "، سورة هود، آية 61.

2- عاد الحديث من جديد عن الاستعمار بعد تصويت البرلمان الفرنسي على قانون 23 فيفري 2005، وخاصّة مادّته 4 التي تضمّنت العبارة الآتية : **تمجيد الدور الإيجابي للوجود** الفرنسي في ما وراء البحار، وخاصّة في أفريقيا الشمالية "وفي عبارة تالية تنويه بتضحيات المكافحين في صفوف الجيش الفرنسي من أبناء تلك الأقاليم ووضْعهم في الدرجة المرموقة التي يستحقّون، وهاهو النصّ الحرفي لهذه المادّة :

Les programmes de recherche universitaire accordent à l'histoire de la présence française outre-mer, notamment en Afrique du Nord, la place qu'elle mérite.

Les programmes scolaires reconnaissent en particulier le rôle positif de la présence française outre-mer, notamment en Afrique du Nord, et accordent à l'histoire et aux sacrifices des combattants de l'armée française issus de ces territoires la place éminente à laquelle ils ont droit.

La coopération permettant la mise en relation des sources orales et écrites disponibles en France et à l'étranger est encouragée.

وهي العبارة التي أثارت استنكارا مشروعا في الجزائر على الخصوص، وبقدر ما كان هذا القانون – الذي وقف وراءه اليمين العنصري وريث غلاة الاستعمار بالأمس – اعترافا من الحكومة الفرنسية لصالح أبناء المستعمرات الفرنسية الذين وقفوا إلى جانب ديمومة الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية، إلى حدّ حمل السلاح ضدّ إخوانهم المكافحين من أجل الاستقلال وهو حال من يوصَفون بالحركى في الجزائر، بقدر ما كان مؤلما لمن عانوا ويلات الاستعمار، من تعذيب وتنكيل ... ولذلك قرّر الرئيس الفرنسي شيراك - بعد عاصفة من الاحتجاجات في البلاد التي كانت خاضعة للاستعمار الفرنسي وخاصّة في الجزائر، وحتّى من الأوساط المعادية للاستعمار في فرنسا ذاتها- إلغاء تلك المادّة،

أنظر:*Le Monde* 11 février 2005

3- مولود قاسم، إنّية وأصالة، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدّينية، مطبعة البعث قسنطينة 1975 ص450.

4- فرحات عباس، ليل الاستعمار ص 76 وص78 .

5- ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين، دار الثقافة القاهرة ص ص 48 – 79.

6- Yves Benot, *Massacres coloniaux. 1944-1950 : la IVe République et la mise au pas des colonies françaises,* Paris, La Découverte et Syros, 1994, 2001, p. 31.

7-Marc Ferro, « La conquête de l'Algérie », *in* Marc Ferro (dir.), *Le livre noir du colonialisme XVIe-XXIe siècle : de l'extermination à la repentance,* Paris, Robert Laffont, 2003, pp. 492, ss.

8- في احتفالية أقامتها بجنيف المفوضية السامية لحقوق الإنسان، تمّ التنويه بمواقف الأمير عبد القادر الإنسانية وأنّه حتّى وهو في منفاه كان يتردّد عليه زوار من الفرنسيين الذين كانوا أسرى عنده فأحسن إليهم ، أنظر : محمّد أنس :الأمير عبد القادر في احتفالية جنيف ... ، جريدة الشروق اليومي، عدد 1659، الأربعاء 12 أفريل 2006، ص 24 .

9- فرحات عباس، ليل الاستعمار ص ص76-78 .

10- البشير الإبراهيمي يشبه الإستعمار بالحيوانات الواردة ذكرها في الأساطير حيث يقول: الاستعمار حيوان من حيوانات الأساطير لأنه يتمتع بألف فم للالتهام وبألف معدة للهضم وبألف

لسان للكذب وتزيين هذه الأعمال ولكن مع ذلك هائجا ببادئ السوءات والمقابح على أسوأ ما نعرفه من الغرائز الحيوانية – انظر محمّد البشير الإبراهيمي،عيون البصائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ج2 ص582وص583.

11- مصطفى الأشرف ، الجزائر الأمة والمجتمع ...

12- هشام جعيط: الشخصية العربية الإسلامية والمصير العربي،ترجمة المنجي ص193،الصيادن،سلسلة سياسية والمجتمع،دار الطليعة ،بيروت ص24

13- مالك بن نبي، شروط النهضة: ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر ص146.

14- في أدبيات القرن التاسع عشر على الخصوص استعمل الرحالة والمؤرّخون الأوربيون عبارة البلاد أو الدول البربرية (Etats Barbaresques)، ويقصدون به أفريقيا الشمالية (المغرب، الجزائر، تونس، طرابلس) أو المغرب العربي كما نقول اليوم.

15- هاينريش فون مالت سان، ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا ، ترجمة أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1976، ص174 .

16- نفسه ، ص 175 .

17- رجاء غارودي، حوار الحضارات، ترجمة د عادل الهوا , منشورات عويدات بيروت 1982 ص 63.

18- جول فيري مفكر فرنسي كان عضوا بارزا في الحكومة الفرنسية وشارك بفعالية في رسم السياسة الفرنسية الاستعمارية ، للاستزادة أنظر : Rambo (A.), Jules ferry , - éditions Flammarion 1907 , Paris 1903, PP. 118 et ss.

19- رجاء غارودي , حوار الحضارات ص 63

20- نفسه، ص65.

21- نفسه، ص65.

22- رونوفان بير وجان باتست، مدخل تاريخ العلاقات الدولية ترجمة فايز كرتميس منشورات البحر المتوسط عويدات بيروت وباريس، ص449 .

23- العروي (عبد الله)، مجمل تاريخ المغرب العربي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ،1984 ص44.

24- لقد أباد ثلاثة ضباط فرنسيين هم : كافينياك وبيليه وسانت ارموا، في سنة واحدة و في ثلاث نقاط مختلفة قبائل عن بكرة أبيها وبأوامر من الجنرال بيجو الذي سيصبح حاكما عاما للجزائر ففي سنة 1845 التجأت قبيلة أولاد رياح بعد أن طردتها كتائب بيجو من قراها إلى مغارة في الجبل، فعمد الكولونيل بيلسيه إلى إشعال النار في فوهة المغارة طوال النهار والليل، وهذا شاهد عيان يحكي ما وقع : بعد أن التجأ أفراد القبيلة إلى المغارة جارة معها حيواناتها خاصة الأبقار والحمير والخيل والخراف، أشعل الجنود النار فيما جمعوه من حطب في فوهة المغارة، وفي الصباح الباكر عندما عمدوا إلى تنظيف مدخل المغارة ... كانت ثمة جثث الأبقار والحمير والخراف، وبين هذه البهائم كان ينكدس تحتها ومن بينها رجال ونساء وأطفال وشيوخ، لكن الصور المؤثرة التي نقلها هدا الشاهد هو مشاهدته لرجل منتصبا على ركبتيه ماسكا بيديه قرني ثور وخلفه جثة امرأة تحتضن طفلها بين دراعيها ...نعم لقد اختنق هذا الرجل عندما كان يحاول حماية أسرته من غضب هدا الحيوان الهائج، إنها غريزة الدفاع عن النفس... هده الصورة كافية لإسقاط القناع عن ممارسات الاستعمار، وخاصة خرافة التمدين والحضارة، وما ظهر أخيرا من إيجابيات يجب تمجيدها.

25 - أرسطو، في السياسة، تعريب الأب أوغسطين بربارة البولسي، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع ط 2 بيروت 1980ص11.